
أركيولوجيا العقل العربي: البحث من الجذور

**The Archeology of the Arab Mind:
Searching from the Roots**

أ.د/ إلهام عبد الحميد فرج بلال

أستاذ المناهج وطرق تدريس المواد الاجتماعية والفلسفية

كلية الدراسات العليا للتربية – جامعة القاهرة

Dr.elhambelal@cu.edu.eg

المستخلص:

كتاب أركيولوجيا العقل العربي للدكتور شوقي جلال هو كتاب مهم، يتناول عددًا من القضايا التي تبحث في أعماق النفس والتاريخ، وعن أسباب ما وصلنا إليه في مجتمعنا، وعن العقل الموروث الفاعل، وفي ذات الوقت يبحث عن كيف يبني عقلًا جديدًا ليدعم مسيرة الحضارة؟ وذلك من خلال رحلة وصفها بمرحلة البحث عن أغوار العقل وغاياته؛ للإجابة عن سؤال يطرحه، وهو كيف نفكر ونعمل بثقة مطلقة؟ معتمدين على رصيدنا الثقافي الموروث بدلًا من بحث ما يتم من التغيير ودراسته، ويرى أن المجتمعات في مراحل النهوض أي مراحل التحول والانتقال وأمل الارتقاء تعود إلى ذاتها تتأمل ثقافتها الموروثة بعقل ناقد في ضوء احتياجاتها؛ فتعيد فحص وفرز رصيدها الثقافي كاشفة عن عوامل القصور والعجز عن تفسير وإنجاز الجديد المستحدث أو عوامل الإعاقة عن الحركة والمضي قدمًا والمنافسة في سباق تقرير الوجود الحضاري.

الكلمات المفتاحية: أركيولوجيا، العقل العربي.

Abstract

Archeology of the Arab Mind by Dr. Shawky Jalal is an important book that deals with several issues that searched in the depths of the soul and history, the reasons for societal problems, and the active inherited mind. At the same time, it is trying to build a new mind to support the march of civilization. This can be achieved through a journey that he described as a stage of searching for mind depths and goals; the answer to a question he poses is how to think and act with absolute confidence? depending on our inherited cultural assets instead of studying what is happening in cultural accumulation. He believes that societies that are in the stages of transformation and transition, returning to their inherited culture with a critical mind in the light of their needs. These societies re-examine and sort their cultural assets, revealing the shortcomings and the inability to interpret and accomplish the new developments to move forward and compete in the race of civilization existence.

Keywords: Archeology, Arab Mind

أركيولوجيا العقل العربي: البحث من الجذور

كتاب أركيولوجيا العقل العربي للدكتور شوقي جلال هو كتاب مهم، يتناول عددًا من القضايا التي تبحث في أعماق النفس والتاريخ، وعن أسباب ما وصلنا إليه في مجتمعنا، وعن العقل الموروث الفاعل، وفي ذات الوقت يبحث عن كيف يبني عقلًا جديدًا ليدعم مسيرة الحضارة؟ وذلك من خلال رحلة وصفها بمرحلة البحث عن أغوار العقل وغاياته؛ للإجابة عن سؤال يطرحه، وهو كيف نفكر ونعمل بثقة مطلقة؟ معتمدين على رصيدنا الثقافي الموروث بدلًا من بحث ما يتم من التغيير ودراسته، ويرى أن المجتمعات في مراحل النهوض أي مراحل التحول والانتقال وأمل الارتقاء تعود إلى ذاتها تتأمل ثقافتها الموروثة بعقل ناقد في ضوء احتياجاتها؛ فتعيد فحص وفرز رصيدها الثقافي كاشفة عن عوامل القصور والعجز عن تفسير وإنجاز الجديد المستحدث أو عوامل الإعاقة عن الحركة والمضي قدمًا والمنافسة في سباق تقرير الوجود الحضاري.

ويشير المؤلف إلى أن مراحل نهوض المجتمعات تبدأ بالشك وإعادة التقييم دون إنكار؛ بواقع الامتداد الحضاري ودون إنكار لفاعلية إرث الماضي وعجزه في الحاضر ومع الفعالية الإنتاجية المتلاحقة الجامعة للإنسان/ والمجتمع والبيئة والعلم والتكنولوجيا في وحدة جدلية تحدث النهوض، وهكذا كانت أوروبا في عصر التنوير واليابان والصين وكذلك المجتمع الإسلامي في نهضته الحضارية، والأزمة التي نعاني منها الآن في مجتمعنا هي نتاج غياب الشك المنهجي على مدى أجيال طويلة، وهذا ما أدى إلى الانصراف عن التجديد؛ فلم نعرف معنى أعمال العقل، وأصبنا بالجمود الذي نعيش به الموروث في صورته الأسطورية دون فهم أو نقد عقلائي.

وهكذا فإن إشكالية كتاب أركيولوجيا العقل العربي هو البحث في تقاعس العقل عن الشك، ومن ثم التراجع الحضاري وإغفال العقل الناقد الإبداعي، ويتناول المؤلف في كتابه أهمية وفضيلة الشك من خلال عرض للخصوصية والفعالية الحضارية وأزمة مصر الحضارية من خلال البحث عن مصر في وعي المصري، ودروس من تجربة كل من : اليابان والهند مع التراث والحداثة، ثم ينتقل إلى الأزمة واغتيال العقل المصري وصورتنا لدى الآخر في عصر التحول، كما يتناول مجتمع المعرفة والخصوصية الثقافية والحضارية العربية، ويتساءل هل من تعارض؟، كما يعرض للخصوصية الثقافية والحضارية ثم تحديات مجتمع المعرفة والعرب ومجتمع المعرفة؟

وسأحاول إلقاء الضوء على تلك النقاط التي طرحها الكاتب باختصار كما يلي:

أولاً: الخصوصية والفعالية الحضارية:

يذكر المؤلف أن الحديث عن الخصوصية يأتي على مستويين: خصوصية الإنسان/المجتمع من حيث النوع؛ أي خصوصية النوع البشري على مستوى التطور الارتقائي ثم خصوصية الإنسان/المجتمع على المستوى المحلي أو العالمي؛ أي خصوصية العقل والاستجابات وما اكتسبته المجتمعات على مدى تاريخها في تطويرها للغاتها وعناصر ثقافتها وأساليبها المتميزة في العمل، وأساليبها في تنظيم هياكل وبنى حياتها وعلاقاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وملاءمة هذا كله للمسرح الجغرافي الذي تجري عليه الأحداث والتفاعلات المحلية والإقليمية والعالمية المؤثرة على هذا سلباً وإيجاباً.

ويرى أن ثمة تفاعلاً وتأثيراً متبادلاً بين الخصوصيةين؛ إذ بات من المسلم به لدى علماء البيولوجيا؛ أن عملية التطور اجتماعياً، هي: عملية تطور مشترك جامع بين الثقافة والسلوك التكيفي من ناحية وبين الطراز الوراثي والطراز الوراثي الجيني، وأن ثمة تفاعل مطرد في الزمان والمكان.

ويرى أن الخصوصية صيرورة تاريخية نشأة وتكويناً وتطوراً بناء على خصوصية النوع، وأن هذا يعني من وجهة نظره ضرورة بحث الخصوصية في تطورها التاريخي والاجتماعي، وبيان عوامل الازدهار والانحسار والقوة والوهن.

ويفرق المؤلف بين الإيمان بالغيب، ومنهج التفكير الغيبي حيث إن الإيمان بالغيب من وجهة نظره لا يحول دون اختصاص إرادة الإنسان/ والمجتمع بشئون حياته في الدنيا ومسؤوليته عنها، أما منهج التفكير الغيبي الذي يسود في عهود الانحلال والانحطاط؛ فإنه يلغي الإرادة ويغيب الفكر والعقل، ومن ثم يتخلى الإنسان/المجتمع عن إرادته ومسؤوليته، وهذا هو المنهج السائد تاريخياً في مصر من وجهة نظر المؤلف منذ انحسارها حضارياً وسقوطها نتيجة للظروف المتتالية التي أدت إلى سقوط الإرادة السياسية المصرية، وتعطيل العقل الإبداعي الانتاجي الاجتماعي للمجتمع المصري في تكامله ووحدته.

ويرى أن الشعب المصري قد تحول إلى تجمع نسوي لا مجتمع، على أيدي الغزاة المتعاقبين وحتى ظهور أول داعية للتبوير الشيخ رفاعة الطهطاوي؛ حيث تعطل إنتاج المعرفة كنشاط مجتمعي وليد الفعل والإنتاج الجمعي، وأثر الاستبداد والقهر على أيدي حكام أجانب ثم محليين على الشخصية المصرية

والمجتمع، وأن المجتمعات العربية بشكل عام وبسبب الانحطاط والقهر والاستبداد يسودها حتى الآن الثقافة الشفهية ثقافة الكلمة والصوت واللفظ وهذه ثقافة عصور التخلف قياساً إلى الثقافة الكتابية ودورها في الإصلاح الديني ونهضة العلوم والديمقراطية.

ويعود ويتساءل لماذا اعتاد البحث النظري عن الخصوصية؟ وماذا عسانا أن نضع تعريفاً للخصوصية أو مرادفاً عند مواجهتنا لتحديات الحضارة على الصعيد العالمي؟ نحن الآن مواقفنا وحالتنا محصلة تاريخ وقيماً شعور التخلف والعجز عن المنافسة ومشاعر الخوف والدونية.

ويرى أن السؤال عن نحن؟ هو اعتراف في النظر المجرد دون جدوى، حيث إن التراث أو نحن هي فعل اجتماعي في التاريخ، وأن ما نفعله هو الذي يحدد من نكون وليس الرجوع إلى كتب السلف الأقدمين، والنهضة ليست بحاجة إلى فكر مستنبط من الماضي ولا العودة إلى خصوصية انتقائية ولكنها وبعد فهم عقلائي نقدي للتاريخ بحاجة إلى عمل وفكر إبداعيين على مستوى حضارة العصر، إلى فكر يراجع الواقع وليس إلى تراث لمعايشة الماضي.

نحن لن نكتب تاريخاً جديداً لنا أسوة بالسلف ولن يذكرنا العالم إلا بعبائنا وإسهامنا الحضاري الذهني، الذي هو حصاد أفعالنا وإنجازاتنا العصرية في البحث العلمي والتكنولوجيا ونظامنا في إدارة حياتنا الاجتماعية، وليس غريباً أن تردد على ألسنة بعض مفكري الغرب قولهم "هناك شعوب لو اندثرت لن يشعر العالم بخسارة فقدها".

ثانياً: وهنا ينتقل المؤلف إلى أزمة مصر الحضارية والبحث عن مصر في وعي المصري.

يكون وجود المجتمع ممكناً لأن أبنائه يحملون في رؤوسهم صورة مشتركة عن هذا المجتمع تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً، وبذا نرى العالم أشياء بعينها بطريقة واحدة جمعية.

يرصد المؤلف صورة مصر منذ قرابة قرن ونصف لدى اليابان وتلخصها كلمة (مصر النهضة) حيث زار مصر وفد ياباني لمعرفة كيف تكون النهضة والآن نجد الصورة على النقيض تماماً. لماذا؟، الإجابة هي المقارنة الآن بيننا وبين تجربة اليابان مع التراث والحداثة؛ إذن التراث بنية ثقافية دينامية متطورة بتطور الفعالية الإنتاجية للمجتمع ويجسد التراث الإطار الفكري الذي يتعامل المجتمع من خلاله مع العالم.

ويمثل التراث مساحة توتر وصراع في مراحل التحول الحضاري حين يعجز عن الوفاء بالأدوات الثقافية اللازمة للتعامل مع الجديد من الظواهر والحدثة عملية تاريخية ممتدة منذ نشأ الاجتماع البشري وليست أبدًا هي الغرب أو أوروبا أو الإنسان الأبيض، ولهذا فإن كل عصر هو عصر حديث في ذاته وزمانه، وله شروطه التي تشكل مجتمعه، ومتكاملة ركائز البناء "الحديث"، وصولاً إلى إنجازات إنسانية موضوعية تنعكس في كل مجالات حياة المجتمع.

ثالثاً: ويشير المؤلف إلى تجربة اليابان مع التراث والحدثة.

فيذكر أن عملية التحديث في اليابان سارت بشكل انتقائي وفقاً لخطوات محددة مع الاستفادة بالغرب من خلال:

حكومة على النمط الأوربي، نظام تعليم طموح، نظام قضائي كان في البداية على النمط الفرنسي ولكن بعد المواءمة مع الأوضاع الاجتماعية اليابانية، ونظام مالي نقدي وضرائبي، وتحديث الاقتصاد، وإقامة نظام مصرفي حديث، وإصلاح النظام النقدي، والتوسع في البنية الأساسية اللازمة للتطوير الاقتصادي، وإقامة صناعات إستراتيجية.

ويعد الإصلاح التعليمي من أهم عوامل النهضة نظراً لدور التعليم في تغيير بنية المجتمع جذرياً، وتغيير ذهنية الإنسان، مما يؤثر على سلوكه وفعاليته، وتهيئة إمكانات المجتمع لمواجهة التحديات وفق مشروع قومي، حيث كان التعليم في اليابان سابقاً يغرس مبدأ الطاعة والحفظ والحفاظ على التراث، وقد شهد إصلاح التعليم صراعاً في البداية بين متطلبات التعليم الحديث وبين التقاليد اليابانية ويعد فوكوزا رائد حركة الإصلاح التعليمي، وقد حققت اليابان إنجازات مهمة في مجال التعليم سبقت غيرها من الدول الغربية.

رابعاً: وفي خصوصية الاعتقاد.

يذكر المؤلف أن تأويل النصوص تحت تأثير السلطة السياسية ونزعتها المحافظة أو نزعتها الثورية أحد منحيين: إذ حين يهدف التأويل إلى الوفاء بحاجة أمه تنزع إلى التغيير؛ فإنه يهيئ مساحة لإرادة الإنسان وحرية الفعل، وهذا النحو في التأويل دائماً قرين عصور الازدهار الحضاري، والمنحى الثاني؛ في تأويل ذات النصوص يقف في تضاد مع الأول؛ إذ يدفع بنزعات التواكل والاستسلام، وتغيب العقل وإهدار مسئولية الإنسان، وكان هذا دائماً قرين عصور التخلف إذ يقف المجتمع مهزوماً تابعاً.

خامساً: وعن الغيب في الحياة والفكر.

يذكر المؤلف أن العقلية الغيبية لا تعتمد على النهج النقدي التحليلي في معالجة الأمر ولا تعرف الشك وذات نزعة أحادية الرفض أو القبول، ويشجع هذا قيماً أخلاقية فردية تواكليه سلبية، وهذا ما تروج له عصور الانحطاط والاستبداد. حيث تغيب الأسباب الموضوعية، وتنتفي قواعد البحث العقلاني لصالح العودة إلى هذه الخصوصية.

وينعكس كل هذا في مجال العمل الاجتماعي متمثلاً في الفردية دون الجماعية ويصبح المثل الأعلى هو الإرادة المطلقة والمثل الأعلى للمحكوم هو الطاعة والخضوع ويحسم أسلوب توظيف البنية الغيبية سلوك الناس ومكانتهم في المجتمع العلمي.

سادساً: وعن مجتمع المعرفة والخصوصية الثقافية يطرح المؤلف سؤاله، هل من تعارض؟

يذكر المؤلف أن العالم بالفعل يعيش أزمة بخاصية التحول، بخاصية النهاية، وإيداناً ببداية صورة جديدة لعالم جديد في إدراك الإنسان.

ويمكن النظر إلى معالم التحول في الإدراك وفي البنية والعلاقات والسلوك من زاوية السياسة والاجتماع، وكذا من زاوية العلم والفكر وكلاهما مترابطان ومتكاملان.

لقد أصبحت الثقافة هي منبع القوة والأساس الذي تقوم عليه التراتبية الاجتماعية والعالمية في عصر مجتمع المعرفة، وفي ظل الإطار الفكري العام سوف تنشأ ثقافة جديدة تتجاوز الأمكنة وسوف يكون الاتصال عبر الكمبيوتر متجاوزاً الفضاء والزمان التقليديين ومجتمع المعرفة بعبارة أخرى هو المجتمع التفاعلي على الصعيد الكوكبي.

ويتطلب ذلك حضوراً ذهنياً وابتكاراً وإبداعاً وحواراً لا يعتمد على التقليد وإنما حواراً يستند على قبول التعددية.

وبناء على ذلك يمثل مجتمع المعرفة تعبيراً رمزياً عن طور حضاري جديد، إنه تعبير عن ثورة تكنولوجية متمركزة حول المعرفة أدت إلى تحول أسلوب التفكير والإنتاج والاستهلاك والتجارة والإدارة والاتصال والحياة والموت، وسوف تكون له تجلياته الثقافية وقضاياها الفكرية، ومفرداته اللغوية، ورؤيته الفنية، وسوف يؤثر بعمق في الثقافة والخصوصية ولكن سوف تتباين وتتعدد بتنوع استجابات المجتمع.

سابعًا: تحديات مجتمع المعرفة.

إن الانتماء إلى مجتمع اقتصاد المعرفة يعني كما قرر إعلان المبادئ الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات جنيف 2003 وتونس 2005 يعني: تسخير إمكانيات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات للنهوض بأهداف التنمية: استئصال الفقر المدقع والجوع ومحو الأمية والمساواة بين الجنسين، وتمكين المرأة والارتفاع بمستوى الرعاية الصحية، وهذه جميعها نمائية في المجتمعات العربية التي تعيش بغير إستراتيجية تطوير حضاري وطني، مما يباعد بينها وبين الجهود اللازمة للانتماء لركب حضارة وعصر الثورة المعرفية.

وتقرر المادة 52 من إعلان المبادئ الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات أن التنوع الثقافي هو التراث المشترك للإنسانية جمعاء، ويمثل هذا النهج ثقافة جديدة بالنسبة لما هو سائد داخل المجتمعات العربية. إذ يتطلب التحلي بالتسامح العقيدي، والانحيازات الأيدلوجية إزاء الآراء والمعتقدات السياسية والعقائد الدينية المغايرة بل والتخلي عن الانحيازات الأيدلوجية في النظر إلى التاريخ في مراحل سابقة رغبة في الكشف عن حركة أحداث التاريخ في موضوعية، وتأكيد الوعي التاريخي الصحيح وحرية القراءة الجديدة والتأويل الجديد لأحداث التاريخ ومساره؟

وبذلك يؤكد المؤلف على أن مجتمع المعرفة هو مجتمع تفاعلي على الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية، وأيضاً على الصعيد التاريخي بمعنى تفاعل مع فكر وثقافة وأحداث الماضي وتجديده.

أما عن التعليم في عصر المعرفة فتحدده المادة 31 أنه أصبح ذا مضمون ومنهج جديدين، إنه ثقافة اجتماعية جديدة إذ تقرر المادة أن التعليم المستمر، وإعادة التدريب، والتعليم عن بعد وغير ذلك من أمور تسهم في إعادة تشكيل المواطنين لعناصر فاعلة في المجتمع الجديد ويعود الإعلان ليؤكد في المادة 33 على ضرورة تدعيم القدرة الوطنية في البحوث والتطوير في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتقرر كذلك المادة 34 أن الاندماج الإيجابي في اقتصاد المعرفة يعتمد إلى حد كبير على زيادة القدرات في مجالات التعليم والتكنولوجيا والنفاز إلى المعلومات.

أين العرب من مجتمع المعرفة؟

يتناول المؤلف لماذا الخوف من العولمة ومجتمع المعرفة؟، وهو سؤال مهم كما يتساءل عن الكيفية التي يواجه العقل العربي هذا التغيير؟، وهو سؤال أهم لاسيما وهو يرى أن العقل العربي عاطل، ولا يمتلك رصيда

معرفيا إلا أثره الماضي، هذا بينما الانتماء إلى مجتمع المعرفة يعني في أبسط الأمور القدرة على الإسهام الإيجابي وأن تكون المجتمعات عنصرًا فاعلاً مبدعاً فضلاً عن استيفاء شروط ومقومات الصلاحية لنشر المعرفة عبر الشبكة الإلكترونية كمادة وثيقة معتمدة قابلة للبحث والنقد.

وتمثل التربية والتعليم في جميع مراحلها المختلفة أداة المجتمع في صناعة الإنسان بما يؤهله عنصرًا فاعلاً ومشاركًا إيجابيًا على مستوى حضارة العصر، ومن ثم التطوير المطرد للمجتمع وأخطر ما في التعليم بالعالم العربي أنه لا يزال يستند على منهج التلقين واستظهار النص وهي أساليب تنمي السلبية وترسخ مبدأ تحريم الخروج عن النص أي سد السبل أمام الإبداع وحرية التفكير.

ويختتم المؤلف كتابه بأن المجتمعات العربية لا تمتلك إستراتيجية تطوير حضاري ومن ثم فهي معطلة من رؤي مستقبلية ورافضة لثقافة التغيير، إلا أنه يذكر أن ذلك لا يعني أن الطريق أمامنا مسدود، وإنما يعني أن إخفاقاتنا مردها إلى أسباب معقدة تاريخيه واقتصادية، وسياسية وبالطبع ثقافية؛ فنحن ندرك نظريًا وتحدث طويلاً عن حضارة العصر وعن المستقبل وانجازات العلم وتحدياته بينما الفعل الاجتماعي مجهض، نحن بحاجة إلى صناعة ثقافة بديلة وذلك بالتحول جذرياً من ثقافة الكلمة إلى ثقافة الفعل، ونحن بحاجة إلى الثقافة النقدية والفهم العلمي لحركة التاريخ والواقع، ومن ثم تمكين الإنسان/المجتمع للتحكم والحكم في السباق الجديد.